موسيقى

ماكس ريختر

في ألبومه الجديد، الذي يحمل عنوان «أصوات» يواصل الموسيقي الألماني - البريطاني، ماكس ريختر، العمل عبر التوجّه المينيمالي في مؤلّفاته، ليبدو وكأنّه يرثي، في هذا الإصدار، الحضارة الغربية، معلناً أفول قوّتها وهيمنتها، خصوصاً مع ما يشهده العالم الآن

تبتعد أعماله عن الملحمة وتقارب التقليلية (Getty)

«أصوات» الأنفاس الأخيرة للغرب

علي موره لي

إشارة جنائزية، تُطلقها جوقة ملائكية، يستهلّ بها الموسيقي الألماني - البريطاني ماكس ريختر Max Richter إصداره الأخير المعنون بـ «أصوات» Voices. يعقبها حفيفٌ يصدر عن أسطوانة أو شريط عفى عليه الزمن، ثم صوت السيدة الأولى إليونور، زوجة الرئيس الأميركي الراحل فرانكلن روزفلت، وهي تتلو سنة 1949 الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ليست تلك بمقدمة مألوفة لألبوم موسيقي. إلا أنها تستجيب، من دون شك، لمزاج التشاؤم العام الذي أمسى منذ أول القرن الحالي صوت الأرض العالي، والذي زاد في علوّه حدّاً بلغ به كل الأسماع، خصوصاً بعد أن اجتاح طاعون الألفية الثالثة (كوفيد-19) الأصقاع، يحصد أرواح الملايين، ويحتجز الملايين الباقية رهائن إما على أسرّة المستشفيات أو داخل جدران المنازل.

يستمر الألبوم في عرض مواد الإعلان لمدة تقترب من الساعة. يُسمع بصوت الممثلة كيكي لين KiKi Layne مشبوكاً بتلاوات متعددة وبلغات مختلفة. في تعارض متعمّد، تُقابل التلاوة المسجّلة بنبرتها التفاؤلية ومتنها الطوباوي، قاعاً موسيقية شديدة القتامة، بجهارة ثلاث عشرة آلة كونترباص واثنتين وعشرين من التشيلو. ثمة شعاعُ نور وحيد في العتمة، يصدر عن آلة كمان منفرّد، إضافةً إلى مفاتيح آلة بيانو تبرق كل حين، وجوقة ترتّل أنغاماً بلا كلمات، تُضفي المزيد من الكآبة على الأجواء الرثائية.

إنتاج ريختر الجديد، بالشكل الفني والمضمون الفكري، كأنما يجمع جملة انكفاءات يختبرها الغرب اليورو - الأميركي، الذي سعى على مدى القرون الخمسة الماضية، بقوة دفع إمبراطورياته الاستعمارية المتعاصرة والمتعاقبة، إلى تحديد وجهة البشرية العلمية والفكرية والثقافية، انطلاقاً مما أطلق عليه المفكر الألماني، سوري الأصل، بسام طيبي «الحضارة القائدة» Leitkultur وذلك في معرض كتابه المثير للجدل الصادر سنة 1989 بعنوان «أوروبا بلا هوية» (Europa Ohne Identität)

أحد تلك الانكفاءات موسيقيّ، يتمثل بالعزوف عن الملحمية، وشيوع الأسلوب «المينيمالي» (التقليلي) Minimalism في الكتابة الموسيقية. إذ به، تؤلَّف الموسيقى على شكل موضوعات موجزة مقتضبة تُعالج بتكرارها وإدارتها خطيّاً، من دون تطويرها دراماتيكياً كما جرى في الماضي، حين كانت الألحان تبلغ ذروة مركزية أو مجموعة من الذُرى، ثم تنحلّ في صورة خلاص طُهراني.

جمالياً، تعكس المينيمالية حقبة، أخذت الموسيقى فيها تلعب أكثر فأكثر دوراً خلفياً مصاحباً، سواءً للسينما والتلفزيون، أو حتى ألعاب الفيديو. من زاوية أكثر انفراجاً، تبدو المينيمالية تقليعة أعم رواجاً، لها أثرها في العمارة والتصميم الداخلي وحتى في الأدب. لا بل إنها غدت نمطاً في الحياة، فالجيل الجديد، الغربي على وجه التحديد، بات يباهي في قلة ما يأكل ويشرب ويقتني من لباس وأثاث.

مينيمالية ريختر ميّزت مجمل أعماله، ولا سيما العمل الأخير، والتي تُسمى مرّات «ما بعد المينيمالية» (Post Minimalism)، لا لكونها تشكل قطيعة مع التيار التقليلي التقليدي، وإنما لكونها استمراراً له وبناءً عليه، بإكسابه طابعاً دينياً رهبانياً يُحيل الموسيقى الأوروبية إلى مرحلتها القروسطية، حيث الموضوعات تشبه في شكلها المقتصد، نغمها المقامي، ونمطها التكراري طقوس الترتيل، والقوالب الموسيقية المنبثقة عنها.

لعلّ في ذلك انكفاءً آخر، ذا بعدٍ فلسفي، يفترق عن سابق عهدٍ، تبوّأ فيه الأوروبي، الإنسان الفرد، برجاحة عقله وجنونه، بفرحته وتعاسته، بنجاحاته وإخفاقاته، بإشراقاته ومعاناته، المتن في الفن، ومحور السردية ووجهة الحدث. أما الموسيقى المينيمالية، أكانت ميكانيكية الطابع، إلكترونية الإيحاء مثل تلك التي أنتجها رواد مدينة نيويورك الأميركية في الربع الأخير من القرن العشرين، مثل فيليب غلاس Philip Glass وستيف رايش Stefen Reich، أو في تحولها المسيحي أو الشاماني بعد الحرب الباردة، كالتي للأستوني آرفو بيارت Arvo Pärt لم تعد تسعى لتجسيد اليقيني، وإنّما تكتفي برصد الميتافيزيقي المجهول، المادي أو الروحاني.

كما لو أنّ الانكفاء المينيمالي انعكاسٌ لانكفاء أعمق، أخذ يطرأ على حال المركزية الغربية ككل، ونظرتها إلى ذاتها وإلى دورها في العالم. سواءً تلك المتمثلة بسطوة الهيمنة العسكرية، أمثولة التعددية السياسية، أو أنموذج النجاعة الاقتصادية، القائمة على الاستهلاك حدّ الإسراف، والحرية المطلقة للصناعة والتجارة، والثقة العمياء بالنمو المضطرد لرأس المال.

أو تلك المظاهر الأقل عنجهية، كالتغني بقيم العالمية والكونية، وتبني التعددية الثقافية، والنظر بعين الرأفة والعطف، المقترن أحياناً، وإن بحسب المصلحة السياسية غالباً، بالمؤازرة والدعم لمجتمعات المستعمرات السابقة، انطلاقاً مما بات يُعرف بـ «وزر الرجل الأبيض» (The White Man's Burden) وشعوره بمسؤولية حصرية، لا تخلو من نرجسية مخفية، إزاء تاريخ حديث، قُدَّر له أن يكتب معظم فصوله، المُشرقة منها والمعتمة.

انكفاءً متعدد الأوجه، يمثّل، إذن، صدى حال ثقافة باتت في مأزق تاريخي، أو على الأقل نقطة عبور تستدعي التأمل والتفكّر، تعتكفُ داخل محرابها المينيمالي، أقرب إلى معبد بوذيّ «يهو - مسيحي»، ذي طراز عصري غربي، أملاً باستنارة عاجلة حيال تساؤلات كُبرى: ترى، هل ما زال الغرب اليوم في موقع الصدارة، أم أنّ العالم يشهد صعود قوى جديدة، لها رؤيتها وفلسفتها ونهجها في السياسة والاقتصاد والمجتمع، وأسلوبها في بسط النفوذ، أو اقتسامه، حول العالم.

هل إعلان حقوق الإنسان، كما تلته السيدة الأميركية الأولى منذ أكثر من نصف قرن، لسان حال الجميع؟ هل يؤمن حقاً بالإنسان على اختلاف جنسه ولونه ودينه، أم أنّ الخطاب الأممي، كما نظّر له مفكرو التنوير الأوروبي منذ القرن الثامن والتاسع عشر، إنما هو في التاريخ وعلى الخارطة حكرٌ على الرجل الأبيض الأوروبي والأميركي، وعليه، بات يعيش اليوم حالاً من تناقض، قد يؤول إلى صدام بواقع التنوع العرقي والديني، سواءً داخل المجتمعات الغربية ذاتها، أو خارجها؟

> يجمع الإصدار جملة انكفاءات يختبرها الغرب اليورو - الأميركي

قلق الإنسان المعاصر

يبدو أنّ الفنان الأوروبي، يشعر الآن بضرورة تجرّع فنه للقضايا السياسية، وتحميل منتجه الإبداعي مضامين تخرج عن نطاق التعبير عن الذات ورفاهية التمحور حولها، ليتوجه بخطاب مباشر يعكس قلق الإنسان المعاصر، مُنذراً بخطر الإذعان لفقدان الأمل وعدم الاكتراث. لعلّ ذلك ما قد سعى ماكس ريختر إليه، عبر إصداره الجديد؛ انكفاءً أسلوبي أتقنه وتعوّد عليه، لدرجة تدعو إلى السأم.

إنتاجات

قبل أيام، أطلقت فرقة **كولدبلاي** البريطانية لموسيقى الروك، أغنية جديدة تحمل عنوان «هايز باور»، خلال مقابلة بالفيديو بين المجموعة التي يقودها كريس مارتن ورائد الفضاء الفرنسي توما بيسكيه.

أصدرت فرقة **ديناصور جونيور** ألبوماً جديداً بعنوان Sweep It Into Space، وهو الألبوم الثاني عشر في مسيرة فرقة الروك الأميركية، التي بدأت قبل 35 سنة. يضم العمل الجديد 12 أغنية.

صدر حديثاً الألبوم الموسيقي الأول للفنان الفلسطيني **فراس زريق**، تحت عنوان «صولو»، وهو عمل جديد من تأليفه وعزفه على آلة القانون. يتكون الألبوم من أربع مقطوعات موسيقية، تمزج بين الموسيقى العربية والأندلسية والجاز.

أعلنت «دار الأوبرا المصرية»، أخيراً، وقف أنشطتها الفنية، على أن تعود ابتداءً من 20 مايو/أيار الجاري، بعروض عدة، أبرزها حفل لـ فرقة **أوبرا الإسكندرية**، و**فرقة الموسيقى العربية** للتراث، و**أوركسترا القاهرة السيمفوني**.

التزاماً بقرار رئاسة الوزراء المصرية، أعلنت **ساقية الصاوي**، في القاهرة، أخيراً، إلغاء كلّ فعالياتها التي كان يفترض أن تقام خلال هذا الشهر، على أن تعود وتقيم عروضها ابتداءً من الأول من يونيو/ حزيران المقبل.

رويسين مورفي
البغاء لا يصنع موسيقى رديئة

عمر بقبوق

«لا يحاول البغاء أن يكون رائعاً. أعتقد أن هذا آخر شيء يدور في ذهنه. إنّه يصنع الموسيقى فقط بإحساسه الحقيقي وبالمسؤولية التي يملكها تجاه حرفته، كما أنّه لا يستطيع أن يصنع موسيقى رديئة؛ سيشعر بالخجل الشديد. لذلك، كلّ ما لديه وكلّ ما تعلّمه سيقوم بوضعه في كلّ ما يصنعه».

بهذه العبارة، قدمت رويسين مورفي، لألبومها الجديد، Crooked Machine، الذي صدرت النسخة الرقمية منه في اليوم الأخير من إبريل/نيسان الماضي، وستصدر نسخة الفينيل منه، في منتصف الشهر المقبل، مع الإشارة إلى أنّ العمل الجديد هو نسخة ريميكس لتسع أغانٍ من ألبومها السابق، Róisín Machine، عمدت إلى إعادة توزيعها وإنتاجها بالتعاون من المنتج الموسيقي ريتشارد بارات، المعروف باسم Crooked Man؛ ليكون الألبوم هو ثمرة جديدة تحصدها مورفي من النجاح الكبير الذي حققه إصدارها السابق، والذي وضعها على منصات التتويج لأول مرة في حياتها الفنية، التي بدأت قبل ما أكثر من خمسة عشر عاماً. لم يأتِ نجاح ألبوم Róisín Machine من فراغ، فهو عمل استغرقت صناعته نحو عشرة أعوام، كسرت فيه مورفي كلّ القوالب المستخدمة في موسيقى البوب، على غرار ما فعلت موسيقى الديسكو في السبعينيات؛ لتعيد رفقة بارات اكتشاف أبعاد جديدة في موسيقى التكنو والهاوس والرترو بوب؛ لتتوج به فكراً موسيقياً خاصاً يؤمن بجماليات غير مكتشفة في موسيقى الإلكتريك بوب، التي بات يتم استهلاكها ضمن وصفات جاهزة. بهذه الطريقة عملت آلة مورفي؛ الآلة التي وصفتها قبل عام بأنّها لا تشبع أبداً، يكفي أن يتم تغذيتها بين الحين والآخر لتكون قادرة على الإنتاج.

> كلمات أعاد ترديدها ببغاء غير ملزم بنقل ما يسمعه حرفياً

تمتلك مورفي في هذا الإصدار مفردات جديدة وخبرة إضافية (Getty)

في هذا السياق، يأتي ألبوم الريميكس غير النمطي Crooked Machine، بعدما أعيد تشغيل الآلة لتدوير الأغاني نفسها؛ ليصنع البغاء ما يتقن صنعه مجدداً، من خلال ترديد الكلمات ذاتها في أبعاد صوتية جديدة؛ لكنّ الكلمات التي أعيد تدويرها تعرضت لعملية تنقيح، لتضاف إليها مقاطع وتحذف أخرى، لتتبدل المعاني، وتتبدل العناوين بدورها. لذا، يمكن أن نستعير مفردات مورفي لوصف عملية صناعة الألبوم: هي كلمات أعاد ترديدها ببغاء غير ملزم بنقل ما يسمعه حرفياً، ليخلق من خلال الحذف والإضافة نصاً جديداً، لا يقلّ جمالية عمّا سمعه في آلة مورفي السابقة.

يمكن أن نفكك عملية صناعة كلمات الألبوم من خلال المقارنة ما بين بعض المقاطع التي أدت عملية إعادة التدوير إلى تحريفها؛ فما بين أغنية Shellfish Mademoiselle وأغنية Crooked Madame يمكن رصد بعض الخطوط الجديدة التي نشأت في إطار علاقة عاطفية مغرقة بالتلميحات الجنسية. لم تتغير معظم الكلمات بعد إعادة تكرارها، لكنّ الجمل القصيرة التي أضيفت إلى نهاية المقطع الأول ونهاية اللازمة وحذف ثلاثة جمل من الأغنية الأصلية، أدى إلى قلب المعنى رأساً على عقب. نعم، نحن ما زلنا في Crooked Madame أمام الظرف الماجن نفسه الذي خلقته الأغنية الأصلية، فما زالت مورفي تطالب بتغيير درجة الحرارة لإثارتها، وما زالت ترتدي اسم «الآنسة الأنانية»، وتواصل الرقص بالكعب العالي. لكنّ الذي حوّل «الآنسة الأنانية» إلى «السيدة الملتوية» هو امتلاكها مفردات جديدة وخبرة إضافية، لتقدم بنهاية كلّ مقطع بعض الإرشادات التي تساعد في إتمام الأمر.